الروائى ماريو بارجاس يوسا

سليمان العطار

(١)

سيرة حياة

- **ولد فى مدينة أركيبيا (البيرو) ٢٨ مارس ١٩٣٦. انفصل أبواه قبل مولده بشهرين. تنتقل والدته مع عائلتها الكافلة لهما إلى كوتشابامبا (بوليفيا).**
- **يعود مع العائلة الأمومية إلى البيرو ليستقروا فى مدينة بيورا عام ١٩٤٥.**
- **عام ١٩٤٦ فى سن الحادية عشرة تعود أمه إلى أبيه، وينتقلان إلى ليما. يكمل دراسته الثانوية حتى السنة الثانية بليما.**
- **١٩٥٠ يلتحق بأكاديمية عسكرية (ليونثيو برادو)، ويتركها بعد عامين قبل التخرج بعام، وستصبح تلك الأكاديمية مسرحا أساسيا لروايته"المدينة والكلاب".**

● ١٩٥١ يعمل كمحرر فى جريدة "لا كرونيكا".

● ١٩٥٢ يعود إلى بيورا ويلتحق بمدرسة سان ميجيل ليكمل دراسته الثانوية، ويعمل بتوقيت جزئى فى مجلة "الصناعة"، وفى هذا العام نفسه تعرض مسرحية له (أول عمل له) عنوانها "الإنكا" المكتوبة عام ١٩٥١.

● ١٩٥٣ يبدأ دراسة القانون والأدب، ويشغل عدة وظائف منها رئيس للأخبار فى إذاعة بان أميريكانا، وسكرتير تحرير لمجلة السياحة، وهذه التجارب ستعطيه مادة رواية "محادثة فى الكاتدرائية".

● ١٩٥٤ يتزوج فى الثامنة عشر بامرأة فى مقام عمته (بالصهر) تكبره فى السن بعشر سنين، هى خوليا أوكيدى (تم هذا الزواج فى بوليفيا لعدم سماح القانون فى البيرو الزواج لمن دون الواحدة والعشرين من العمر).

● ١٩٥٧ تظهر له قصة "الرئيسا"، وقصة "الجد" فى مجلتين مختلفتين لتشكل القصة الأولى عنوان أول مجموعة قصصية يقوم بنشرها.

● ١٩٥٨ يسافر إلى باريس كجائزة لفوزه فى مسابقة للقصة القصيرة (لمدة أسبوعين)، لكنه يمكث شهرا. القصة الفائزة بأول جائزة فى حياته هى "التحدى"، وبعد عودته يسافر إلى غابات الأمازون البيروانية لتصير مسرحا لروايته "البيت الأخضر". وفى نفس العام يتخرج من الجامعة، وينال منحة لتفوقه فى درجات التخرج للحصول على الدكتوراة فى الفيلولوجيا الرومانية من الجامعة المركزية بمدريد.

● ١٩٥٩ ينشر أول كتاب له هو المجموعة القصصية "الريسا" المشار إليها قبل ذلك، ويهجر الدكتوراه، ليستقر فى باريس حتى عام ١٩٦٦ شاغلا عدة وظائف ابتداء من مدرس للغة الإسبانية إلى مذيع فى إذاعة فرنسا الموجهة لأمريكا اللاتينية.

● ١٩٦٣ ينشر روايته "المدينة والكلاب" لينال عليها عدة جوائز تحمل اسمه لبداية أضواء الشهرة، وفى عام ١٩٦٤ يقوم بزيارة سريعة للبيرو يذهب خلاله إلى غابات الأمازون. ويطلق زوجته التى طال أمد زواجهما قليلا بفضل الإقامة فى باريس.

● ١٩٦٥ يسافر إلى كوبا للاشتراك فى تحكيم جائزة "بيت أمريكا"، وتتوثق علاقته بكوبا، ويصبح عضوا فى مجلس تحرير مجلة "بيت أمريكا" إلى أن ينتهى تصالحه مع النظام الكوبى عام ١٩٧١. فى نفس العام يتزوج باتريشيا يوسا ابنة خاله، والتى كان قد التقى بها مرارا فى باريس عندما كانت تدرس القانون فى السوربون.

● ١٩٦٦ ينشر رواية البيت الأخضر.

● ١٩٦٧ ينشر روايته القصيرة "الجراء" ثم رواية "بيتشولا كويّار"، ويتلقى ٤ جوائزمهمة من إسبانيا والبيرو وفنزويلا. يتنقل بين باريس ولندن وبرشلونة. يقيم صداقة طويلة مع ماركيز تنتهى بالقطيعة الممتدة من ١٩٧٦ حتى الآن، بسبب شكوك لا أساس لها حول تحرش مزعوم لماركيز بباتريشيا فى برشلونة.

● ١٩٦٨ عدة زيارات أوروبية، وللولايات المتحدة (ولاية واشنطون).

● ١٩٦٩ ينشر روايته الثالثة "محادثة فى الكاتدرائية".

● ١٩٧٠ يبدا مرحلة استقرار دائم فى برشلونة يستمر لخمس سنوات.

● ١٩٧١ ينشر موضوع الدكتوراه عن ماركيز، كما ينشر كتاب "التاريخ السرى لرواية" متحدثا فيه عن مفاتيح روايته "البيت الأخضر".

● ١٩٧٣ ينشر روايته الرابعة "بانتاليون والزائرات".

● ١٩٧٤ يعود للبيرو للاستقرار هناك، ويقوم بنشاط أدبى وصحفى مكثف.

● ١٩٧٦ يعانى فشل تدخله فى رواية "بانتليون والزائرات" سينمائيا، ويسافر إلى إسرائيل بدعوة من الجامعة العبرية فى القدس لإلقاء محاضرة، وتلقى درجة الدكتوراه الفخرية.

● ١٩٧٧ يصدر رواية سيرة ذاتية عن زواجه الأول "خوليا والكاتب"، وترد عليها زوجته السابقة بعد أعوام ستة "مالم يقله بارجيتاس"، وبارجيتاس تصغير برجاس.

● ١٩٧٩ يعد لروايته "حرب نهاية العالم".

● ١٩٨١ ينشر مسرحية "آنسة باكنا" التى عرضت فى ليما ومدريد، وينهى كتابة رواية حرب نهاية العالم وينشرها.

● ١٩٨٣ ينشر كتابه "ضد الريح ودوار البحر"، وهو مجموعة من المقالات السياسية والأدبية، كذلك ينشر مسرحية "وكاتى مع فرس النهر".

● ١٩٨٤ ينشر رواية "تاريخ مايتا" ويرفض منصب رئيس وزراء البيرو.

● ١٩٨٦ ينشر رواية "من قتل بالومينو موريرو" وعمله المسرحى "لا تشونجا".

● ١٩٨٧ يعارض تأميم وبَرْوَنة النظام المالى فى البيرو، ويشكل حركة الحرية التى تتحالف مع

حزبين من المعارضة، ويتم تشكيل الجبهة الديمقراطية، ويفصّل ذلك فى كتابه المشهور "السمكة فى الماء"، وهو لون من ألوان السيرة الذاتية، وينشر رواية " الثرثار".

● ١٩٨٨ ينشر رواية "الثناء على العمة".

● ١٩٨٩ يرشح نفسة لرئاسة البيرو.

● ١٩٩٠ – ١٩٩١ بعد فشله الانتخابى يعود إلى لندن ويتفرغ للأدب والكتابة الصحفية، وفى طريقه للندن يمر بالمكسيك، ويلقى بقنبلته المشهورة، والتى دارت حولها الأحاديث لمدة عقد من الزمان وساهمت فى تغيير النظام الساسى بالمكسيك. إنها عبارة ألقاها فى جرأة يحسد عليها من التليفزيون الرسمى المكسيكى :"نظام الحكم فى المكسيك يمثل الديكتاورية فى أوج كمالها". هكذا تبدد وهم ادعاء النظام أنه ديمقراطى.

● ١٩٩٢ أستاذ فى جامعة هارفارد.

● ١٩٩٣ الحصول على الجنسية الإسبانية ويحصل على جوائز مهمة من إسبانيا أهمها جائزة "بلانيتا".

● ١٩٩٤ يحصل على جائزة ثربانتس.

● ١٩٩٦ يُختار عضوا فى الأكاديمية الملكية الإسبانية للغة، ويحصل على عدد من الجوائز والدكتوراهات الشرفية، وتموت أمه.

● ١٩٩٧ ينشر رواية "دفاتر دون ريجوبيرتو".

● ٢٠٠٠ – ٢٠٠١ ينشر رواية " ديكتاتورية تروخيُو" وتدور حول دكتاتورية تروخيُو فى جمهورية الدومينكان.

● ٢٠٠٣ ينشر رواية "الفردوس فى الناحية الأخرى"، وكتاب "يوميات العراق".

● ٢٠٠٤ ينشر كتاب "إغراء المستحيل"، وموضوعه مقال أدبى عن رواية البؤساء لفيكتور هوجو.

● ينشر مجموعة مقالات فى كتاب بعنوان "معجم الحب الأمريكى".

● ٢٠٠٦ ينشر كتاب بعنوان "إسرائيل – فلسطين، حرب أم سلام". وفى نفس العام ينشر رواية " شقاوة بنت مشاغبة".

● ٢٠٠٧ ينشر مسرحية " أوديسيو وبنيلوبى". وفى نفس العام يجمع عدد من قصائده الغنائية المختارة، وينشرها تحت عنوان "حوار سيدات". كذلك ينشر مجموعات من مقالاته السياسية والأدبية.

● ٢٠٠٨ ينشر مسرحيته "عند أقدام التيمز". كما ينشر مقال أدبى عن القصاص والروائى أونيتى، أول من كتب روايات وقصص مشربة بالواقعية السحرية ليمهد الطريق أمام جابرييل غارثيا ماركيز ليؤسس هذا المذهب الأدبى السردى.

● ٢٠٠٩ ينشر عملين هما : ألف ليلة وليلة (عمل مسرحى)، وفونتشينو والقمر (حكاية أطفال).

● ٢٠١٠ ينال جائزة نوبل فى الأدب، ويتسلمها من ملك السويد فى ٧ ديسمبر، وقد صدرت أثناء تسلمه جائزة نوبل آخر رواية له وهى "حلم الثيلتا"، ويلقى محاضرة مدهشة فى استلام الجائزة، تخللها التصفيق لأول مرة فى تاريخ تسليم الجائزة، حيث يقع التسليم فى جو وقور يختم بتصفيق يخلو من الحماس. وفيما يلى نقدم ترجمة كاملة لتلك المحاضرة. وهى محاضرة مدهشة تقدم خطوطا عريضة لنظرية السرد فى علاقتها بتاريخ تشكل كائن اسمه االإنسان من صورته الأولى كحيوان فى الغابات والكهوف. أيضا يقدم لنا شيئا من سيرة حياته فيما يدعم ويعمق تلك الخطوط العريضة. فهو سياسى مناضل من أجل الحرية، وهو كاتب فى مثابرة عملاق الرواية العربية نجيب محفوظ. وستكتفى فى هذا العدد بإيراد تلك المحاضرة المهمة والمثيرة، بعد عرض سريع بالسنوات لإنجازات حياة ذلك الكاتب البيروانى، الذى يلقى الآن تكريما واسع النطاق فى بلده البيرو، وكثير من بلدان العالم، فهو أول نوبل لكاتب بالإسبانية منذ عام ١٩٨٩ عندما حصل الإسبانى إميليو خوسيه ثيلا

على نوبل فى السنة التالية مباشرة لنوبل نجيب محفوظ، فهل نقلب الآية ويحصل كاتب عربى على نوبل العام القادم بعد نوبل اللغة الإسبانية الحالية.

* فى الأعداد القادمة سوف نتحدث عن خصائص فن بارجاس الروائى، وعموما، فقد مر بمرحلتين فنيتين، فى الأولى كان شديد الجدية، وفى المرحلة الثانية سيطر على حس السخرية، هكذا يشبه ماركيز الذى أمضى ربع قرن من الكتابة شديدة الجدية قبل القدرة على السيطرة على حس السخرية، وهو الأسلوب الأرفع والأصعب فى نفس الوقت لدى كتاب الرواية. بارجاس يوسا احترف الصحافة منذ الخامسة عشر من عمره، وما زال يعمل بها حتى الآن، وعرف الحياة العسكرية، أيضا احترف العمل السياسى، كذلك كان رحالة، وتعددت مغامراته، لكنه لم يتوقف عن قراءة الأدب وإبداعه يوما واحدا. أعماله الأدبية تنطلق من وقائع وتجارب حياتية يصوغها خيال عبقرى وسيطرة بديعة على إسبانيته، وعلى المعرفة الوجدانية لتاريخ الإنسان الحديث بطريقة مستحدثة تجعل من واقعية أعماله كتابة للتاريخ منحازة للحرية ضد الديكتاتورية، حتى أن حيثية منحه نوبل التى لفتت الأنظار هو تضمن أعماله أطلس الدكتاتوريات. المصادر المتعددة لخبرات وثقافة بارجاس يوسا وعلى رأسها التعدد الثقافى البيروانى منحت أعماله بعدا إنسانيا غائر عمق الصدى، غير محدود الأفق.

(٢)

محاضرة "ماريو بارجاس يوسا"
يوم استلام جائزة نوبل ٢٠١٠ فى الأدب
٧ ديسمبر من نفس العام.

تعلمت القراءة فى الخامسة من عمرى فى الفصل الدراسى للراهب خوستنيانو، فى مدرسة ال "سايّى" فى كوتشا بومبا (بوليفيا). إن الشىء الأكثر أهمية الذى حدث لى فى حياتى. تقريبا سبعون عاما بعد ذلك أتذكر فى صفاء كيف كان ذلك السحر، ترجمة كلمات الكتب إلى صور، الأمر الذى غير حياتى، محطما كل أسوار الزمان والفضاء، وسامحا لى بالسفر مع الكابتن نيمو فى رحلة "عشرين ألف فرسخ تحت الماء"، أوالنضال مع الفرسان الثلاثة دى أرتجنان ثوس، وبورتوس، وأرميز ضد المؤامرات التى كانت تهدد الملكة فى زمن ريشيليو المخوف، أو أجرر أذيالى فى وجدانات باريس منقلبا إلى جان فالجان بجسم ضئيل بنمو لماريو.

القراءة كانت تحول الحلم إلى حياة، والحياة إلى حلم، وكانت تضع بين يدى "الرجيل" الذى كان "أنا" كل الكون الأدبى. وقد حكت لى أمى أن أول شىء كتبته كان امتدادا للحكايات التى كنت أقرأها، حيث كان يحزننى أن تنتهى تلك الحكايات، أو لأننى كنت أود تغيير نهاياتها، وربما أكون قد أمضيت حياتى فى فعل نفس الشىء دون أن أدرى، بينما يمتد بى الزمان، ناميا ثم ناضجا فهرما، ممدّدا لزمن الحكايات التى ملأت طفولتى بالدهشة والمغامرات.

وكم كنت أود لو كانت أمى هنا معنا، فقد كانت تنفعل فى عاطفة، وتبكى أثناء قراءة قصائد "أمادو نيربو" و "بابلو نيرودا". أيضا جدى "بدرو"، ذو الأنف الكبيرة والصلعة البراقة، كان يحتفل بأشعارى، والخال لوتشو كان يدفعنى أن أحول جسمى وروحى لأكتب، مع أن الأدب فى تلك الفترة، وفى ذلك المكان كان لايسد رمق مبدعيه. وطول الحياة كان إلى جانبى أناس هكذا، يحبوننى، وأيضا، بفضل عنادى، وشىء من الحظ، تمكنت من تفريغ شطر طيب من وقتى لهذا "الهوى"، والإدمان و"العِجْبَة"، المسماة "الكتابة": خلق حياة موازية للمكان الذى نلوذ به ضد التحديات، أمر يجعل من الخارق للعادة طبيعيا، ومن الطبيعى خارقا للعادة، وينظم الفوضى،

ويجمّل القبيح، ويخلد العارض، ويجعل من الموت عرضا لمشهد عابر.

لم يكن سهلا كتابة حكايات. فالمشاريع تذبل عندما تتحول لكلمات على ورق، والأفكار والصور تنطفئ. كيف يمكن بث الحياة فى كل ذلك؟ لحسن الحظ كان هناك الأساتيذ لكى نتعلم منهم، ونتابع مثالهم. "فلوبير" علمنى أن الموهبة صبر طويل ونظام متقن. فوكنر علمنى كيف أن الشكل -"كتابة وبنية" - هو الذى يعظّم أو يُفقِر المواضيع، مارتوريل، وثربانتس، وديكنز، وبلزاك، وتولستوى، وكونراد، وتوماس مان علمونى أن الرقم والطموح لهما أهمية قصوى فى رواية، تماما مثل الحذق الأسلوبى والإستراتيجية الروائية. أما سارتر فقد علمنى أن الكلمات وقائع، وأن رواية أو عملا مسرحيا أو مقالا ملتزمون باللحظات الراهنة عند الكتابة، وبأفضل الخيارات، يمكنهم أن يغيروا مجرى التاريخ. و"كاموس أورويل" علمنى أن أدبا خاليا من الأخلاق يكون ضد الإنسانية، ومالرو علمنى أن البطولة والملحمة يناسبان العصر الراهن، كما ناسبا عصر أبطال الملاحم مثل الأوديسة والإلياذة.

نعم، أستحضر فى هذا الخطاب كل الكتاب - الذين أدين بالقليل أو بالكثير - بأشباحهم علهم أن يغمرونا فى أسرار ظلام الأشباح. إنهم كثر. فوق هذا، بكشفى الحجب عن أسرار مهنة الحكى، فإنهم جعلونى أستطلع هاوية أعماق ما هو إنسانى، معجبا بمآثر هؤلاء العظام، منفزعا من سقطاتهم. لقد كانوا الأصدقاء الأكثر عطاء، والمشجعين ليولى، وفى كتبهم اكتشفت، حتى فى أسوأ الظروف، أن هناك أملا، وأن العيش يستحق العناء، حتى لو كان فقط: بسبب أن بغير الحياة لم نكن لنستطيع قراءة وتخيل الحكايات.

فى بعض المرات، سألتنى، هل فى بلاد مثل بلدى، قليلة القراء، كثيرة الفقراء والأميين والمظلومين، حيث الثقافة ميزة تفضيلية لقلة قليلة، ألا تكون الكتابة رفاهية أنانية ؟! لكن هذه الشكوك لم تطفئ قط ميلى للكتابة، وواصلت الكتابة بشكل مستمر، حتى فى تلك الفترات، التى كان العمل من أجل لقمة العيش يستغرق معظم وقتى تقريبا. وأظن أننى قمت بالعمل الصائب، لأنه وحتى تزدهر الآداب فى مجتمع يكون مطلبا ملحا بلوغ الثقافة السامية قبل أى شىء بجانب الحرية والرفاهية والعدالة، الأمر الذى لم يتحقق قط. ومع ذلك، فبفضل الأدب والضمائر التى شكلها، والرغبات والأشواق التى ألهمها، وخيبة الأمل التى نصادفها بالعودة إلى الواقع من رحلة ذات خيال جميل، فإن الحضارة الآن أقل قسوة، وذلك عندما بدأ الحكاءون يؤنسنون الحياة بحكاياتهم ذات الخيال المجنح. كنا سنكون أسوأ مما نحن عليه دون الكتب الجيدة التى قرأناها، دونها كنا سنكون أكثر توافقا و أقل قلقا وأكثر قابلية للقهر، والكتابة أكسبتنا الروح النقدية، وهى محرك التقدم، فلم يوجد قط ما هو أفضل من الكتابة.

والقراءة - مثلها مثل الكتابة - احتجاج ضد عدم الكفاية فى الحياة. ومن يبحث فى القص عما لايملكه، يقول دون حاجة لقوله، أو حتى لمعرفة أنه قاله، إن الحياة كما هى الآن لاتكفينا لرى ظمئنا للمطلق أساس الوجود الإنسانى، وأنها ينبغى أن تكون أفضل. فقد اخترعنا القصص كى نستطيع العيش بشكل ما الحيوات الكثيرة التى نود الحصول عليها، بينما نحن لا نكاد نملك حياة واحدة. دون القصص كنا سنكون أقل وعيا بأهمية الحرية لكى تكون الحياة قابلة لأن نحياها، ولندرك خطورة الجحيم الذى تنقلب إليه الحياة عندما يستخف بها طاغية، أو عقيدة سياسية أو دين. ومن يشكّون فى الأدب، عليهم أن يعلموا أنه كما يغمسنا فى الجمال والسعادة، فإنه يحذرنا من القهر، ولتسألوا انفسكم لماذا تقوم كل الأنظمة التى تتعهد

بضبط سلوك الإنسان من المهد إلى اللحد، بالخوف منه كثيرا : إنهم يؤسسون أنظمة رقابة كى يقمعوه، ويراقبوا الكتّاب بكل ارتياب. يقومون بذلك يعرفون الخطر الذى يعرضون أنفسهم له إذا تركوا الخيال يأخذ مجراه فى الكتب. ينجم الوعى عبر وقائع التمرد التى تلف القص عندما يقارن القارئ الحرية التى تجعلها ممكنة والتى تمارس فيه مع الظلامية والخوف اللذين يهدد العالم الواقعى. وسواء يريدون أو لا يريدون او يعرفون أو لا يعرفون فإن صناع الخيال، عند اختراعهم الحكايات، فهم يروجون لعدم الرضا، مظهرين أن العالم سئ الصنع، وأن حياة الفانتازيا أكثر غنى من الروتين اليومى.. هذا البرهان إذا ضرب جذورا له فى الحساسية والوعى، يجعل المواطنين أكثر استعصاءاً على من يريد أن يحتكر حياتهم، وأكثر مقاومة لقبول أكاذيب من يريد أن يجعلهم يعتقدون أنهم - بين حيتان ومفتشين وسجانين- سوف يعيشون أكثر أمانا وسيحيون حياة أفضل. الأدب الجيد يمد جسورا بين أناس متنوعين، ويجعلنا نتمتع أو نعانى أو نندهش، ويوحدنا من تحت سطح اللغات، والمعتقدات، والمنافع والعادات، والانحيازات التى تفرقنا. وعندما يبتلع الحوت القبطان "أهاب" فى البحر ينقبض قلب القراء بشكل واحد فى طوكيو أو ليما أو تومبوكتو. وعندما تتناول إمّا بوفارى الزرنيخ، أو تلقى أنا كارنينا بنفسها أمام القطار، أو عندما يصعد سوريل على منصة الإعدام، وعندما يخرج طبيب المدينة الدكتور جوان داهلمان من الحانة إلى سهول البامبا لمواجهة سكين قاتل محترف، أو عندما نخشى أن كل سكان كامولا بلد بدرو بارامو كلهم ميتون، ارتعاد القارئ يصير متماثلا : سواء كان يعبد بوذا أو كونفوشيوس أو المسيح أو الله أو كان من "اللاأدرية"، وسواء ارتدى جوالا من الخيش أو ربطة عنق أو جلبابا أو كيمونو أو سروالا فضفاضا (بومباتشو). الأدب يخلق "أخوية" داخل التعدد الإنسانى، ويزيل الحدود التى تبنى بين الرجال والنساء بفضل الجهل و الإيديولوجيات و الأديان واللغات والغباء.

وكما فى كل العصور، نال كل عصر نصيبه من الفزع، والدليل فزعنا من المتطرفين والإرهابيين الانتحاريين، وهم سلالة قديمة مقتنعة أن القتل يورث الجنة، وأن دم الأبرياء يغسل تقيحات الكرامة الجمعية، ويصحح الظلم، ويفرض الحقيقة والحق على المعتقدات الزائفة. ضحايا لاتحصى يذبحون كل يوم فى أماكن متعددة من العالم على يد من يظنون أنهم يملكون الحقائق المطلقة. كنا نعتقد أنه بزوال الإمبراطوريات الشمولية سوف يفرض نفسه السلام والتعايش والتعددية وحقوق الإنسان، وسوف يخلّف العالم وراءه أنواع الهولوكوست، وجرائم القتل، والغزو، وحروب الإبادة. لاشىء من هذا قد وقع. صيغ جديدة من البربرية تحيط بنا مدفوعة بالتطرف، وتكاثر أسلحة الدمار الشامل، ولايمكن استبعاد أن أى مجموعة من المخلّصين المجانين قد تثير فى يوم من الأيام زلزالا نوويا. ينبغى الخروج إليهم فى اعترض لطريقهم، ومواجهتهم وهزيمتهم. ليسوا كثيرين، رغم أن ضجيج جرائمهم يُسمع بضراوة فى كل الكوكب، ويزعجوننا برعب الكوابيس التى يثيرونها. لاينبغى أن نترك أنفسنا للحياء فى وجه من يرغبون فى تدميرنا. فلندافع عن الديمقراطية الليبرالية، والتى مع كل محدوديتها، مازالت تعنى التعددية السياسية، والتعايش، والتسامح، وحقوق الإنسان، واحترام النقد، وسيادة القانون، والانتخابات الحرة، وتداول السلطة، كل هذا الذى يخرجنا من الحياة الرديئة، ويقربنا - ولو أننا لن نبلغ ذلك قط - من الحياة الحلوة والكاملة التى يدّعيها الأدب، تلك الحياة التى ما فتئ يخترعها، ويكتبها، ونقرأها فحسب، بينما نحن جديرون

بنيلها، مواجهين المتطرفين قتلة الإنسان، مدافعين عن حقنا فى الحلم، وجعل الحلم حقيقة.

فى شبابى - مثل كثير من الكتاب من جيلى - كنت ماركسيا، وآمنت بأن الاشتركية ستكون العلاج للاستغلال والظلم الاجتماعيين، اللذين يتفاقمان فى بلدى "أمريكا اللاتينية" وبقية العالم الثالث. إحباطى من سيطرة الدولة، والشمولية، وتحولى إلى الديمقراطى الليبرالى، الذى أنا عليه الآن - أو أحاول أن أكونه - كان طويل الأمد، وصعبا، وتحقق ببطء، على حلقات، مثل تحول الثورة الكوبية (وإن كان فى اتجاه مضاد)، التى أثارت حماسى فى البداية، إلى النموذج التسلطى، والرأسى للاتحاد السوفييتى، والشاهد على ذلك المنشقون الذين استطاعوا النفاذ بين الأسلاك الشائكة للجولاج، أيضا غزو تشيكوسلوفاكيا على يد دول ميثاق فارسوفيا، ثم بفضل مفكرين مثل رايموند ألون، وجان فرانسواريفيل، و أسيبًاه برلين، وكارل بوبر، أولئك الذين أدين لهم بإعادة تقييم الثقافة الديموقراطية، وللمجتمعات المنفتحة. هؤلاء الأساتيذ كانوا نموذجا للتنوير والروعة، عندما كان ذكاء الغرب، عبر الطيش أو الانتهازية، قد أذعن للسحر الأسود للاتحاد السوفييتى، وما هو أسوأ لاجتماع الساحرات للثورة الثقافية الصينية الدموية.

عندما كنت طفلا كنت أحلم بالوصول إلى باريس فى يوم من الأيام، لأننى كنت أستضئ بالأدب الفرنسى، وكنت أعتقد أن العيش هناك وتنفس الهواء الذى كان يتنفسه بلزاك، وستندال، وبودلير، وبروست، سوف يساعدنى على الانقلاب إلى كاتب حقيقى، بينما إذا لم أخرج من البيرو سوف أتحول إلى كاتب مزيف يصلح لتسلية الناس فى نهاية الأسبوع، وفى باقى أيام إجازاتهم. وفى الحقيقة أدين لفرنسا وللثقافة الفرنسية بتعاليم لا تنسى، مثل أن الأدب مثلما هو ميول وهواية، هو أيضا نظام وعمل وعناد. عشت هناك فى أيام سارتر، وكامى، عندما كانا على قيد الحياة ويكتبان، فى سنوات يونيسكو، وبيكيت وبانيِّى، وسينما إجمار برجمان، والـTNP (مسرح باريس الوطنى) لجان فيلار، و"الأوديون" لجان لويس بارُولت، والرواية الجديدة، والخطابة والقطع الأدبية الجميلة، وكتابات أندريه مالرو، وربما العروض الأكثر مسرحية لأوروبا ذلك الزمان، والمؤتمرات الصحفية والرعود الأولمبية للجنرال ديجول، لكن ما أدين به لفرنسا أكثر ربما يكون اكتشافى لأمريكا اللاتينية. هنا تعلمت أن البيرو جزء من المجتمع الشاسع الذى كان يتأخاه التاريخ والجغرافيا، والإشكالية الاجتماعية والسياسية، وطريقة معينة لكينونة الذات، واللغة اللذيذة التى كنت أتكلمها وأكتبها. فى تلك السنوات نفسها كان ينتج أدبا جديدا ومنافسا بقوة. هناك قرأت بورخيس، وأكتابيو باث، وكورتاثار، وغارسيا ماركيز، وفوينتس، وكابريرا إنفانتى، ورولفو، وأونِّتى، وكاربينتر، وإدواردز، ودونوسو، وكثيرين آخرين، كانت كتاباتهم تصنع ثورة روائية داخل اللغة الإسبانية، وبفضلهم كانت أوروبا وشطر عظيم من العالم يكتشفون أن أمريكا اللاتينية لم تكن فقط قارة الانقلابات العسكرية، والزعماء الأوبريتيين، والكوماندوز ذوى اللحى، ورقصات المامبا والتشاتشا، وإنما أيضا قارة الأفكار والصيغ الفنية والفانتازيا الأدبية التى تبث البدائع، وتتكلم لغة كونية.

ومنذ تلك الفترة، طفقت أمريكا اللاتينية تتقدم دون تعثر أو زلل، حتى لو كان الأمر كما يقول بيت الشعر ل "ثيسار باييخو": حتى الآن - إخوتى - بقى الكثير جدا مما ينبغى عمله. نعانى من دكتاتوريات أقل مما كان منذ عهد قريب، فقط فى كوبا وفنزويلا المرشحة لتثنِّيها، وبعض

الديمقراطيات الغوغائية والتهريجية مثلما هو الحال فى بوليفيا ونيكاراجوا. لكن فى بقية القارة – سوء أقل من سوء – فإن الديمقراطية تعمل، مدعومة بتوافق شعبى، ولأول مرة فى تاريخنا لدينا يمين ويسار مثلما الحال فى البرازيل وشيلى وأوروجواى، والمكسيك، وتقريبا كل أمريكا الوسطى، حيث يحترمون الشرعية، وحرية النقد، والانتخابات، والتجديد فى السلطة. هذا هو الطريق الجيد إذا واظب على محاربة الفساد المستشرى، والذى يغطى العالم أجمع. ستغادر أمريكا اللاتينية موقع قارة المستقبل(أى التى تنتظر قدوم التنمية فى المستقبل) بفضل هذا الطريق، لتحتل موقع قارة الحاضر.

لم أشعر قط أننى أجنبى فى أوروبا، والحقيقة، ولا فى أى مكان فى العالم. فى كل الأماكن التى عشت فيها، باريس، لندن، برشلونة، برلين، واشنطون، نيويورك، البرازيل، جمهورية الدومينيكان. كنت أحس أننى فى وطنى. دائما وجدت حبا حيثما استطعت العيش فى سلام، مستمرا فى عملى، ومتعلما أشياء، ومشبعا تخيلات، وملاقيا أصدقاء، وقراءات طيبة، ومواضيع أكتبها. لايبدو لى أن انقلابى إلى مواطن عالمى دون أن أعمد إلى ذلك، أنه أضعف ذلك الشىء الذى يسمونه الجذور، وروابطى بوطنى الحميم – وهذا لم يكن له أهمية كبيرة، لأنه لو كان الأمر كذلك فإن التجارب البيروانية لم تعد تغذينى ككاتب، ولا تظل دائما فى حكاياتى، رغم أن هذه التجارب عندما تظهر، فإنها تظهر بعيدا جدا عن البيرو. أظن أن العيش زمنا طويلا خارج الوطن مسقط الرأس قوّى أكثر تلك الروابط مضيفا إليها منظورا مضيئا لُمّاحا، بجانب الأشواق التى تميز الملامح والجوهرى، ويحافظ على الذكريات فى تلألؤ. الحب نحو الوطن الذى يولد فيه الواحد منا لاينبغى أن يكون إجباريا، وإنما مثله مثل أى حب، ينبغى أن يكون حركة تلقائية من القلب مثل الغرام الذى يوحد العشاق، والآباء والأبناء، والأصدقاء فيما بينهم.

البيرو أحمله فى وجدانى لأننى ولدت فيه، وتشكلت، وعشت تجارب الطفولة تلك مع تجارب الشباب مما وضع قالب شخصيتى، وصهر ميولى، لأننى هناك أحببت وأبغضت، وتمتعت، وعانيت، وحلمت.. مايجرى هناك يؤثر فىّ أكثر، ويحرك وجدانى ويسخطنى أكثر مما أحسه تجاه مايجرى فى أجزاء أخرى من العالم. لم أسعى لذلك، ولم أفرضه على نفسى، ببساطة هكذا كان الأمر. بعض الإخوان من مواطنى بلدى كانوا يتهموننى بالخيانة أثناء الدكتاتورية الأخيرة، حتى أننى كدت أفقد مواطنتى (يقصد ما نسميه بالجنسية) لأننى طلبت من الحكومات الديمقراطية فى العالم معاقبة النظام فى البيرو بعقوبات دبلوماسية واقتصادية، الأمر الذى قمت به دائما تجاه كل ديكتاتورية مهما كان اتجاهها، كديكتاتورية بينوتشيه، وفيديل كاسترو، وديكتاتورية الأئمة فى إيران، وديكتاتورية التمييز العنصرى فى جنوب إفريقيا، وديكتاتورية العسكر فى بورما، وغدا سأعود لفعل نفس الشىء لو تعرض البيرو – لاقدر الله ولا سمح به البيروانيون – مرة أخرى لانقلاب عسكرى لتصفية ديمقراطيتنا الضعيفة. وما حدث ذاك لم يكن تصرفا متسرعا وانفعاليا، من ممرور كما وصفتنى بعض الأقلام المتعودة على إصدار الأحكام على الآخرين منطلقة من ضآلة ذاتهم. لقد كان فعلا يتفق وقناعتى من أن كل ديكتاتورية تمثل السوء الأعظم لأى بلد، فهى منبع للبهيمية، والفساد، والجروح العميقة التى يتأخر اندمالها طويلا، وتسمم مستقبل الوطن، وتخلق عادات غير صحية، تمتد عبر الأجيال، مطيلة من أجل بناء الديمقراطية. من أجل هذا، الدكتاتوريات يجب محاربتها دون تريث، بكل الوسائل التى

تملكها أيدينا، متضمنة العقوبات الاقتصادية. وإنه من المحزن أن الحكومات الديمقراطية، بدلا من التضامن مع من يواجهون ضراوة الديكتاتورية، -- مثل حركة "لاس داماس دى بلانكو" فى كوبا، أو أونج سان سوكى، أو ليو تشاوبو - فإنها تظهر مرات كثيرة رضاها عن الجلادين وليس عن الضحايا، أولئك الشجعان الذين يحاربون من أجل حريتهم، وأيضا من أجل حريتنا.

مواطن بيروانى، هو خوسيه ماريو أرجيداس، سمى البيرو بلد كل الأعراق. لا أجد صيغة أخرى أفضل لتحديد هوية وطن. هكذا نحن، وهذا مايحمله فى داخلهم كل سكان البيرو، سواء أعجبنا أو لم يعجبنا، فنحن محصلة مجموع من التقاليد والسلالات، والمعتقدات، وثقافات تنتمى للجهات الأربع الأصلية..... بالنسبة لى، أفخر بإحساسى أننى وريث ثقافات ما قبل التاريخ، التى صنعت نسيجا وملاءات من الريش عند "الناتكا والباراكاس"، والفخار الموتشيكو أو الإنكا والذى يعرض فى أفضل متاحف العالم، وأننى وريث بناة ماتشو بيتشو، والتشيمو العظيم، والتشان التشان، والكويلاب، والسيبان، ومعابد البروخا والشمس والقمر، وأننى وريث الإسبان الذين أحضروا اليونان وروما والتراث اليهودى المسيحى، والنهضة الأوروبية، وثربانتس وكيبيدو وجونجرا، واللغة الإسبانية الجزلة التى منحتها جبال الإنديز حلاوة، أولئك الإسبان بأحمالهم وسيوفهم وخيولهم، وأيضا مع إسبانيا وصلت إفريقيا ببدائيتهم وموسيقاهم، وخيالهم الجياش، لإغناء التعدد البيروانى. وإذا تعمقنا قليلا سنجد أن البيرو مثل "ألف" بورخيس : هى العالم كله فى إطار صغير. أى تميز خارق للعادة لبلد بلا هوية لأنه يملك كل الهويات.

غزو أمريكا كان قاسيا وعنيفا بالطبع ككل غزو، من ثم يجب نقده، لكن لاننسى عند النقد أن من ارتكبوا تلك الإبادات والجرائم كانوا الإسبان الذين ذهبوا لأمريكا، وهناك اختلطت دماؤهم ما عدا من عاد إلى إسبانيا. هذه الانتقادات - كى نكون عادلين - يجب أن تكون نقدا للذات، فعند الاستقلال عن إسبانيا، من مائتى عام، فإن من حكموا المستعمرات القديمة، بدلا من إنقاذ الهندى وتحقيق العدل الذى حرم منه بكل ماتلقى من إساءات، واصلوا استغلاله فى جشع كبير وضراوة مثل الغزاة، وفى بعض الأقطار أبادوه وصفّوا وجوده. فلنقلها بكل وضوح : صار تحرير السكان الأصليين عملا يقتصر علينا، ولم ننجز ذلك العمل. لقد صار مثل المقرر الدراسى المعلق فى كل أمريكا الجنوبية. لا يوجد استثناء واحد لهذا الخزى وذلك العار.

أحب إسبانيا كثيرا مثل حبى للبيرو، وديْنى لها كبير فى مساحة الشكر الذى أقدمه لها. وبدون إسبانيا ماكنت وصلت قط لهذا المنبر، وما كنت لأكون كاتبا معروفا، وربما مثل زملاء كثيرين غير محظوظين كنت الآن أتجول فى الأعراف دون حظ دون ناشرين، دون جوائز دون قراء، وموهبتهم - وهذا عزاء حزين - يحلم بأن تكتشف يوما فى آجل الأجل. فى إسبانيا نشرت كل كتبى، واستقبلت تقديرا مبالغا فيه، وحصلت على أصدقاء مثل بارّال، وكارمن بالثيّس، وآخرين كثر تفانوا حتى تجد رواياتى قراءً. وإسبانيا أهدتنى جنسية ثانية عندما كان من الممكن أن أفقد جنسيتى. ولم يحدث قط أننى أحسست أقل تناقض بين أن أكون بيروانيا وأحمل جواز سفر إسبانى؛ لأننى أحسست دائما أن إسبانيا والبيرو وجهى عملة واحدة ، ليس فحسب فيما يتعلق بشخصى الصغير، وإنما أيضا فيما يتعلق بوقائع جوهرية مثل التاريخ واللغة والثقافة.

وفى كل السنوات التى عشت فيها فوق الأرض الإسبانية أتذكر فى حماس السنوات الخمس التى

قضيتها فى برشلونة الحبيبة فى بدايات السبعينيات. ديكتاتورية فرانكو كانت لاتزال قائمة، بل وتطلق الرصاص على معارضيها، لكننى كنت خيطا مطمورا فى نسالة نسيج، وفوق كل شىء فى حقل الثقافة، غير قادر على مواجهة ذلك القهر القديم. لكن برشلونة كانت تفتح فجوات وثلمات، وعبرها كان المجتمع الإسبانى يستوعب أفكارا جديدة، وكتبا، وتيارات فكرية وقيما وأشكالا فنية، كانت حتى ذلك الزمان من الممنوعات على يد الانقلابيين. ولم يستثمر ذلك أى مدينة أخرى بقدر ما فعلت برشلونة، وهذه البداية للانفتاح لم تعش نفس الازدهار فى كل حقول الأفكار والإبداع. وقد تحولت برشلونة إلى العاصمة الثقافية لإسبانيا، والمكان الذى كان ينبغى أن أستقر فيه لكى أتنفس بشائر الحرية الآتية. وبطريقة ما، كانت عاصمة الثقافة لأمريكا الجنوبية، بسبب الأعداد الكبيرة من الرسامين والكتاب والناشرين والفنانين الذين استقروا هناك، أو يروحون ويجيئون إليها، لأنها كانت المكان حيث ينبغى أن يوجدوا، إذا أراد الواحد أن يصير شاعرا أو روائيا أو رساما أو مؤلف موسيقى عصرنا. بالنسبة لى، هذه كانت سنوات لاتنسى من رفقة وصداقة وتدبير الأمور، ربما فى خفاء وعمل خصب فكرى. وتماما مثل باريس من قبل، كانت برشلونة برج بابل، مدينة كوزموبوليتانية وكونية، حيث كان العيش والعمل مليئا بالتحفيز، وحيث - ولأول مرة - منذ الحرب الأهلية، اختلط وتآخى كتاب إسبان وأمريكيون لاتين، معترفا بهم أصحاب تراث واحد، ومتحالفين فى مؤسسة مشتركة، وعندهم يقين: أن نهاية الديكتاتورية كانت قريبة، وأن الثقافة فى إسبانيا الديمقراطية ستكون اللاعب الرئيسى. ومع أن هذا لم يحدث بالضبط، فإن التحول الإسبانى من الديكتاتورية إلى الديمقراطية كانت قصة من أفضل قصص الأزمان الحديثة، ومثال لكيف - عندما تسود الحساسية والعقلانية، وعندما يكون الأضداد السياسيون متجاوزين للمذهبية لصالح الصالح العام - يمكن وقوع أحداث إعجازية، مثل أحداث الواقعية السحرية. التحول الإسبانى من الشمولية التسلطية إلى الحرية، ومن النمو إلى الرفاهية، ومن مجتمع أضداد اقتصادية، وعدم مساواة عالمثالثية إلى بلد الطبقات الوسطى، المتكامل مع أوروبا، الذى تبنى فى سنوات قليلة ثقافة ديمقراطية أعجب بها العالم أجمع، ورأى تحديث إسبانيا واقعة بلا نظير. كان ذلك بالنسبة لى تجربة مثيرة عاطفيا، وكان درسا لى أن أعيشها عن قرب، وفى أحيان قصيرة من داخلها. وليشأ الله أن القوميات - وهى وباء لا علاج له فى العالم الحديث - وأيضا فى إسبانيا - ألا تفسد هذه القصة السعيدة.

أكره كل صيغة من صيغ القومية، عقيدة - أو بالأصح دينا - يبعثر الأقاليم - طيرانه قصير المدى، تمييزى، مقصر للأفق العقلى، ويخفى فى إهابه الانحياز الإثنى والعنصرية، من ثم ينقلب إلى قيمة عليا الظرف العارض لمسقط الرأس فى تمييز أخلاقى وكونى. وبالإضافة للدين، القومية كانت سبب أسوأ مذابح التاريخ، مثل مذابح الحروب العالمية، ونزيف الدم الحالى فى الشرق الأوسط. ولم يساهم كثيرا - فى بلقنة أمريكا الجنوبية، ونزيف الدم غير الآبه لمعارك ونزاعات - شىء قط مثل القومية، فى إهدار لموارد فلكية فى شراء أسلحة بدلا من تشييد مدارس، وبناء مستشفيات. لايجب أن نخلط بين القومية ذات اليونيفورم ورفض الآخر - كبذرة للعنف دائما - وبين الوطنية، كإحساس صحى وكريم، حب للأرض حيث رأى الواحد منا النور، وحيث عاش الأسلاف، وصهروا الأحلام الأولى والمشهد الطبيعى المألوف للجغرافيات، كائنات محبوبة، ووقائع تحولت إلى أنفاس للذاكرة، ودروع ضد

إحساس الوحدة والعزلة، الوطن ليس الأعلام أو الأناشيد ولا الخطابات الحاسمة، حول الأبطال المشهودين، وإنما هو حفنة من الأماكن، والأشخاص الذين يعمرون ذكرياتنا، ويصبغونها بالأشواق، والإحساس الدافئ، وعليه لايهم أين نكون، فهناك البيت الذى يمكن أن نعود إليه.

البيرو بالنسبة لى هو مدينة اسمها "أركيبيا" حيث ولدت لكن لم أعش فيها قط، مدينة حيث علمتنى أمى وجدودى وأخوالى كيف أعرفها عبر ذكرياتهم وأشواقهم، لأن كل قبلتى العائلية، كما تعود أن يفعل الأركيبيون حملت دائما تلك المدينة البيضاء معها فى تجوالها الوجودى. أما بيورا الصحراء، والخروب، والحمار فى معاناته، والذى سماه سكانها "القدم الآخر" -لقب جميل وحزين - هناك تعلمت أن الأطفال لم تأت بها اللقالق

(نوع من الطيور)، لكن يصنعهم رجل وامراة يرتكبان أعمالا بربرية هى الخطيئة الأولى القاتلة.

إنها مدرسة سان ميجيل، ومسرح المنوعات حيث للمرة الأولى رأيت أوبريت كتبتها أنا تصعد فوق المسرح... إنها ناصية شارع دييجو فيرّيا مع كولون، فى ميرافلوريس - حيث يسمونها الحى البهيج - عندما بدلت بالبنطلون الشورت البنطلون الطويل، ودخنت أول سيجارة، وتعلمت الرقص، وتعلمت أن أعشق، وأعبر عن عشقى للفتيات.

وكان تحرير الجريدة اليومية "لأكرونيكا" المغبرّة (المبنى)والفاترة الضوء، حيث سن السادسة عشرة، وحيث سهرت على صنع أسلحتى الأولى كصحفى، مهنة هى والأدب احتلا كل حياتى، وجعلانى مثل الكتب أعيش أكثر، وأعرف العالم أفضل، والتردد على أناس من كل جهة، ومن كل اللهجات، أناس ممتازين وطيبين، وأشرار وبغيضين. وكانت المدرسة العسكرية "ليونثيو برادو"، حيث تعلمت أن البيرو لم تكن تختصر فى الطبقة الوسطى التى عشت بينها حتى تلك اللحظة - منفيا ومحميا - وإنما هى وطن كبير، قديم، ساخط، بلا مساواة، ومهزوز بكل نوع من العواصف الاجتماعية. وإنها الخلايا السرية الكاهويدى، وفيها بحفنة من السانماركيين (اسم نسب من : سان ماركو) كنا نعد للثورة العالمية.

والبيرو أيضا هو أصدقائى وصديقاتى فى حركة "الحرية"، والذين معهم ولثلاث سنوات - بين القنابل وانقطاعات الكهرباء والاغتيالات الإرهابية - كنا نعمل للدفاع عن الديمقراطية والثقافة والحرية.

البيرو هو باتريشيا، ابنة العم "الأنوف الحرون"، وذات الطبع غير القابل للترويض، والتى حظيت بالزواج منها منذ ٤٥ عاما، دون أن تتوقف عن تحمل نزواتى وانفلاتاتى العصبية والمغيظة، والتى تساعدنى على الكتابة. دونها كانت حياتى سوف تتبدد منذ زمن فى دوامة من الفوضى، وما كان وُلد جونثالو ومورجانة، ولا الأحفاد الستة الذين يمددون فى حياتنا ويبهجوننا. هى تعمل كل شىء، وتعمله جيداً. تحل مشاكل، وتدبر اقتصاد، وتضع نظاما للفوضى، وصاعقة للصحفيين والمتطفلين، تحافظ على وقتى، وتحدد المواعيد والسفريات، وتعبئ الحقائب وتفرغها، وهى كريمة حتى عندما تتحدانى، وتخصنى بأفضل الثناء : ماريو الشىء الوحيد الذى تصلح له هو الكتابة.

لنعد إلى الأدب. فردوس الطفولة : ليس عندى أسطورة، وإنما واقع عشته وتمتعت به فى البيت الكبير للعائلة، ذى الثلاثة أفنية فى كوتشا بامبا، حيث مع بنات أخوالى وزملاء المدرسة استطعنا أن نعيد إنتاج قصص طرزان وسالجان، وفى بريفكتورا ببيورا، والتى تحت سمائها كنا نسعى كالخفافيش، أشباح من ظلال، نملأ بالأسرار الليل الملئ بالنجوم فى تلك الأرض الدافئة. فى تلك السنوات كانت الكتابة لعبة تحتفل بها العائلة، طرافة

جديرة بالتصفيق، وبالنسبة لى كنت الحفيد وابن الأخت، الابن دون أب، لأن أبى كان قد مات، وكان فى السماء ,كان سيدا طويل القامة، وفتى طيبا، يرتدى يونيفورم بحّار. كانت صورته تزين الكومودور فى غرفة نومى، وكنت أصلى من أجلها، وأقبلها قبل النوم. وفى أحد صباحات بيورا التى لم أستطع حتى أن أستوعبها، كشفت لى أمى أن ذلك الرجل كان فى الحقيقة ما زال حيا. وإنه فى نفس ذلك اليوم سوف نذهب للعيش معه، فى ليما. كنت قد بلغت ١١ عاما، ومنذ تلك اللحظة تغير كل شىء. فقدتُ البراءة، واكتشفت التوحد والعزلة، وحياة النضج والخوف. وكان خلاصى فى القراءة : قراءة الكتب الجيدة، واللواذ بتلك العوالم حيث العيش لون من الجلال وكثيف، ومغامرة وراء أخرى، حيث كنت أحس بالتحرر، وعدت إلى السعادة. لم يعد الأدب لعبة. صار طريقة لمقاومة العداء، وللتمرد، والهرب الذى لافكاك منه، وسببا للعيش ومنذ ذلك الزمان، وحتى الآن، وفى كل الظروف التى أحسست فيها بأنى مأزوم أو معتدى علىّ، أو على شطآن الناس، كنت أسلم نفسى جسما وروحا لعملى كصانع حكايات، تمثل الضوء فى آخر النفق، ولوح الخشب الذى يتعلق به الغريق سعيا نحو الشاطئ.

ومع أن ذلك يكلفنى عملا كثيرا، ويجعلنى أعرق غارقا فى عرقى، وككل كاتب، أحس أحيانا بتهديد الشلل، وجفاف الخيال، لكن لاشىء أمتعنى فى الحياة مثل قضاء الشهور والسنين مشيّدا حكاية، من نقطة الشك فى تصويبها نحو تلك الصورة التى خزنتها الذاكرة لتجربة معاشة تحولت إلى قلق، وحماس وفانتازيا وُلِدت آنذاك فى شكل مشروع، وفى شكل قرار بتحويلها إلى ضباب مهتز من أشباح فى حكاية. "الكتابة طريقة للعيش" هكذا قال فلوبير، ولقد صدق، فهى طريقة للعيش فى تخيلات وبهجة، ونار يتقد شرارها فى الرأس، متشاجرة مع الكلمات المتمردة حتى تتسيّد عليها، فى استطلاع للعالم الواسع مثل صياد يطارد فرائسه الجشعة، كى يغذى خيال القص بحبوب اللقاح، وسدٌ نهم تلك الشهية النهمة لكل حكاية، خلال نموها تلتهم عظام كل الحكايات. الوصول إلى الإحساس بالجلاد الذى يقود (بسوطه) بين يدينا رواية فى طور التشكل، منذ لحظة أن تبدأ فيها اتخاذ الشكل، ويظهر أنها بدأت تعيش "بيده لابيد عمرو" ولحسابه الخاص، بشخصيات تتحرك، وتقوم بأفعال، وتفكر، وتحس، وتتطلب احتراما واعتبارا، ولا يمكن التحكم فى تصرفاتها، ولا حرمانها من حقها فى الاختيار الحر، ولو فيه حتفهم، دون أن تفقد الحكاية قدرتها على الإغواء. إنها تجربة لا زالت تسحرنى كما لو كنت أواجهها لأول مرة، فى امتلاء ودوار، مثل ممارسة الحب مع امرأة تعشقها أسابيع وشهور، دون توقف.

لكى نتحدث عن القص، تكلمت كثيرا عن الرواية، وقليلا عن المسرح، شكل آخر من أشكال الأدب السامية. ظلم عظيم بالطبع. المسرح كان حبى الأول، منذ مراهقتى، رأيت فى مسرح سيجورا بمدينة ليما "موت مسافر" لآرثر ميلر، عرض تركنى مبهورا من الانفعال، وعجل بى لكتابة دراما "إنكا". وإذا كان فى ليما الخمسينيات حركة مسرحية لكنت كاتب مسرح قبل أن أكون روائيا. لكن لم يحدث، وتوجهت كل مرة أكثر نحو القص الروائى، لكن حبى للمسرح لم يتوقف قط، وإن كان قد تناوم قابعا تحت ظلال الروايات، كإغراء وتشوق، وفوق كل شىء عندما كنت أرى عملا مسرحيا فيه إغواء. وفى السبعينيات، الذكرى الملحة لإحدى خالاتى (الجدات) المسنات (لامامايه)، والتى فى السنوات الأخيرة من عمرها مع الواقع الظرفى حيث كنت ألوذ فى الذكريات والقص الخيالى، اقترحت على قصة. وأحسست

بطريقة تنبؤية بأن تلك كانت قصة للمسرح، وفقط فوق خشبة المسرح يمكن أن ينال- حياة وتوهجا - كلُّ ما بها من خيالات. كتبتها فى ارتعاد مثير لمن هو مبتدئ، واستمتعت كثيرا عندما شاهدتها تعرض على خشبة المسرح، مع "نورما أليأندرو" فى دور بطلة المسرحية، ومنذ ذلك الحين كان بين كل رواية ورواية، ومقال ومقال، يحدث أن أعود لارتكاب الكتابة المسرحية مرة بعد أخرى. هذا نعم، لم أتخيل مطلقا، أنه فى السبعين من عمرى أننى كنت أصعد (والأفضل القول إننى كنت أجرر نفسى) على خشبة مسرح كى أمثل. هذه المغامرة الجريئة، جعلتنى أعيش مرة أخرى- لحما وعظما- معجزة هى- بالنسبة لشخص عاش عمره يكتب حكايات - تجسيد شخصية فانتازية لبضع ساعات، وعيش الحكاية فى مواجهة الجمهور. ولم أستطع قط تقديم ما يكفى من الشكر إلى أصدقائى المحبوبين، (المخرج "خوان أويِّيه"، والممثلة "آيتانا سانشيس خيخون") لتشجيعى على مشاركتهم هذه التجربة الفانتازية، رغم الرعب الذى لازمها.

الأدب تمثيل مزيف للحياة، ورغم ذلك، يساعدنا على فهمها أفضل، ويهدينا فى المتاهة التى ولدنا فيها نمر ونموت. تلك الحياة تثقل علينا بالمعاكسات والانتهاكات، التى توهن حياتنا الحقيقية، وبفضل الأدب نحل شفرة - على الأقل بشكل جزئى- هيروغليفية اعتادت أن نسميها "الوجود" بالنسبة للغالبية العظمى للكائنات البشرية، وبشكل رئيسى أولئك منا الذين تريحهم الشكوك أكثر من اليقين، ويعترفون بحيرتهم فى مواجهة مواضيع "الماورائية"، والمصير الفردى والجمعى، الروح، الحس أو معنى التاريخ، الأقرب والأبعد للمعرفة العقلية.

دائما كان يلهب خيالى تصور ذلك الظرف غير اليقينى، الذى كان فيه أسلافنا عندما كانوا لا يكادون يختلفون عن الحيوان، وعندما كانت اللغة وليدا حديث الولادة لكنه يسمح لهم بالتواصل. بدءوا فى الكهوف، وبالنسبة لإشعال النار - فى ليال تغلى بالتهديد، صواعق، رعد، وصرير أسنان الوحوش - قد دفعهم كل ذلك إلى اختراع حكايات وقصها فيما بينهم. كانت تلك اللحظة الحاسمة للتحول فى مصيرنا، لأنه فى دوائر تلك الكائنات البدائية، المعلقين بالصوت والفانتازيا للقصاص، بدأت الحضارة، وذلك الزمان الطويل الذى تأنسنا فيه شيئا فشيئا، وحملنا هذا إلى اختراع الفرد العاهل (الحاكم)، ونزعه من القبيلة لدفع العلم، الفنون، القانون، الحرية، فحص واختراق العالم الداخلى للطبيعة، لجسم الإنسان، وللفضاء، والسفر إلى النجوم. تلك الحكايات، والخرفات، والأساطير، وقصص القديسين (الأولياء)، والتى تردد صداها لأول مرة كموسيقى فى مواجهة جمهور مستمعين مأخوذين بالأسرار الغامضة، وأخطار العالم غير المعروف فى كليته، والخَطِر، كانت تلك الحكايات حماما منعشا، وعالما من الألفة لهذه الأرواح التى تسكنه، والذين كان الوجود يعنى لهم تناول الطعام، تخزين الغذاء، القتل، الجنس. ومنذ أن بدءوا يحلمون أحلاما جمعية، ويتشاركون الأحلام، مدفوعين بقصاصى الحكايات، تركوا أن يصيروا مربوطين إلى ساقية حب البقاء وطاحونة الأفعال المتوحشة، وتحولت حياتهم إلى حلم، متعة، فانتازيا، وإلى رمز ثورى بتحطيم تلك العزلة، والتغير، والتحسن، صراع لإخماد تلك الرغائب، والطموحات التى بداخلهم تستحثهم الحيوات التى يتمثلونها، والتطلع لإجلاء الغموض الذى كان يلف ما حولهم.

هذه العملية - التى لم تنقطع قط - أثْرَتْ - عندما ولدت الكتابة - الحكايات، فبجانب الاستماع إليها أصبح من الممكن قراءتها، وبلوغ الديمومة التى يهبها لنا الأدب. فلهذا يجب تكراره دون هدنة حتى

الاتفاق حول طريقة نقله إلى الأجيال الجديدة.
القص أكثر من تسلية، وأكثر من ممارسة عقلية، تجعل الحساسية أحدّ، وتوقظ الروح الناقدة. إنه حاجة لا يمكن الاستغناء عنها حتى تستمر الحضارة في الوجود متجددة، ومحافظة بداخلها على الأفضل مما هو إنساني، حتى لا نتراجع إلى البربرية، وفقد الاتصال، وحتى لا تقتصر الحياة على نفعية المتخصصين الذين يرون أعماق الأشياء لكنهم يجهلون ما يحيط بها وما يسبقها وما يستمر تاليا لها. وحتى لا نمضي في خدمة الآلات التي اخترعناها لنصير عبيدا لها وخدما: ولأن عالما دون أدب سيصير عالما دون رغائب ولا مثاليات ولا تمرد، عالما من آلات ذاتية الدوران محرومين مما يجعل الكائن الإنساني إنسانيا بحق، قادرا على الخروج من ذاته وترويض نفسه ليصير آخرَ بين آخرين أعيدت صياغتهم بالعصا السحرية لأحلامنا.

من الكهوف إلى ناطحات السحاب، ومن الأظافر إلى أسلحة الدمار الشامل، ومن الحياة الطوطمية للقبيلة إلى عصر العولمة، وحكايا الأدب قد ضاعفت التجارب الإنسانية، مانعة الرجال والنساء منا من تغلب السبات علينا والانطواء والاستسلام. لاشيء مثل الأدب يبذر كثيرا من القلق ويحرك الخيال والرغبات. لاشيء مثل تلك الحياة المشكّلة من الأكاذيب التي أضفناها إلى ما بأيدينا بفضل الأدب لارتكاب المغامرات العظيمة، والانفعالات العظيمة، التي لا تعطينا الحياة الحقيقية فرصة لارتكابها. عبرنا نحن القراء المتحولين الملوثين بالأشواق، وعبر خطيئة الحكايات ما نحن فيه من خطر مع الواقع المنحط. سحر يلهمنا نيل ما ليس لدينا، وأن نكون ما لسنا عليه، والعبور إلى ذلك الوجود المستحيل، حيث الوثنية، نحس أنفسنا أرضيين وخالدين في نفس الوقت، الأدب يُدخل إلى نفوسنا عدم التوافق والتمرد، وهما وراء كل حسنة ساهمت في تقليل العنف في العلاقات الإنسانية: تقليل العنف وليس القضاء عليه، لأن حكايتنا - بالصدفة- حكاية بلا نهاية. ولهذا علينا أن نواصل الحلم والقراءة والكتابة، وهذه هي الطريقة الأكفأ التي عثرنا عليها لتهدئة ظرفنا المهلك، ولإسقاط سوس الزمن، وتحويل المستحيل إلى ممكن. ■